في الأدب المقارن

بقلم : كاظم الظواهرى
مدرس في قسم الادب والنقد

من المقرر وجود علاقة مباشرة بين الدراسات الادبية المقارنة وبين القوميات ، بل انه لا تقوم لهذا النوع من الدراسات قائمة الا في عالم القوميات حيث تتعدد اللغات والاجناس والعصبيات والمذاهب والمعتقدات والعادات والتقاليد ، وحيث تنتشر الظواهر الادبية كالموجات تغطى السطح ولكنها تختلف قوة وضعفا من مكان الى آخر ومن وقت الى آخر وربما من لغة الى أخرى في أحيان كثيرة . (ويليك ووارين – ص ٦٠ ، ٦١) .

ومن حيث ترتبط الدراسات المقارنة بالقوميات ، ترتبط أيضا بمصالح الامم ، ولعلها تنبع منها ، وتتوجه بوحى من هذه المصالح ، حيث تتحكم طبيعة الامة وبيئتها ، ومعتقداتها ولغتها وعلاقاتها بجاراتها في تكوين فلسفتها السياسية والاجتماعية وثقافتها وأدبها ، ومن هنا كان منشأ هذه الاختلافات والتفاوت في مناهج الدراسات المقارنة بين الامم والاداب ، وهذا هو الخيط الاول الذى يمسك به الدارس عندما يحاول أن ينسج منهجا لدراسته ويؤسس صرحا من قواعده .

ونظرا لما يمكن أن يعترض به على هذا المنهج فاننا نحرص هنا على اثبات صلة كل منهج بالمصلحة القومية للامة التى تقرر هذا المنهج والتأكد من أنه نابع من تربة هذه الامة وليس غريبا عنها أو مستوردا من بيئة أخرى ، وان كان هذا ليس من

أساسيات الدراسة ، فليس حتما على الباحث المسلم أن يأتى أبدا من النظائر الاجنبيةبما يعضد وجهة نظره ، فما هكذا يصنع أولئك الاجانب ، وما هكذا ينبغى أن نكون ، وقد آن أن نتحرر من هذا الاسر المظلم الطويل ، والهزيمة الحضارية لكل وافد من شرق أو من غرب ! ٠

* * *

وتتفاوت مناهج الدراسة المقارنة باختلاف أهداف أصحابها ، من التشدد القاسي والتضييق في فرنسا وايطاليا الى التوسع والتساهل الشديد جدا في أمريكا ٠

ففى ايطاليا يرى كروتشه (١٨٩٤م) أن البحث عن نظائر ومشابهات في الاداب المختلفة ليس بالمنهج المستقل ، وانما هو معين على تفسير النصوص الادبية والحكم عليها ، وليس المنهج المقارن الا مجرد وسيلة يمكن بها عقد مقارنات تاريخية أو العثور على أمثلة قد تكون أقرب الى الكمال (السكرى ٦٥ - ٦٦) ٠

وذهب كروتشه الى أن الادب المقارن لا يعين على فهم النصوص الادبية بل ربما يعوق فهمها وتقديرها ، وهو قاصر لانه يتلقف الصورة النهائية للعمل الادبى ولا يتتبع مجراه مذ كان فكرة في ذهن الاديب حتى يظهره في تلك الصورة النهائية ٠

وقد كان لهذا الرأى صداه في ايطاليا فلم يعن أساتذة الادب فيها كثيرا بالدراسات المقارنة ، علاوة على أن النزعة القومية التى نجم عنها وحدة الشعوب الايطالية في القرن الماضي كان لها أثرها أيضا في ضآلة شيوع هذا النوع من الدراسات فيها ٠

أما في فرنسا فقد عنيت المدرسة الفرنسية ببحث التراث المشترك للقارة الاوربية ، من أجل جعل باريس مركزا للحركة الادبية في أوربا ، ولهذا نجد عنايتهم فائقة بالدراسات الخاصة باللغات التى تفرعت عن اللغة اللاتينية الام ٠

ونظرا لارتباط نشأة الدراسات المقارنة في فرنسا بالحركة الرومانسية التى تنادى بالثورة على كل القيم والموروثات والاخلاق والمجتمع ، وباستقلال الاديب بذاته ، وتفاعله مع العناصر الفطرية والطبيعة ، فقد أنكرت كل صلة لهذه الدراسات بغيرها من الدراسات الادبية والعلمية وأنكرت صلة الادب بالمجتمع والفلسفة والدين • وتوفرت هذه المدرسة على رصد الظواهر الادبية ووضعها في اطار من التاريخ الادبى للعالم المتحضر ولم تتعرض للنواحى الجمالية في العمل الفنى ، ونفت كل صلة للادب بالفنون الاخرى كالتصوير والموسيقى •

وهذه المدرسة لارتباطها بالرومانسية أيضا تقيم وزنا كبيرا للاعتبارات القومية التى تعدها أساسا لقيام الدراسات المقارنة، وقد سبب هذا الامر متاعب لاساتذتها الذين قاموا بدراسة التأثيرات الالمانية في فرنسا (موريس بورا ـ ص ١٢) •

وتعد المدرسة الفرنسية من أنشط المدارس المقارنة في العالم وأقدمها وخاصة أنها وجدت في مهد المذاهب الادبية الحديثة التى كانت تولد دائما لدوافع اجتماعية أو سياسية أو حربية وكانت تصدر حال ظهورها الى سائر بلاد أوربا والشرق والامريكتين •

أما في المانيا فالادب المقارن يعد جزءا من التاريخ الادبى ، ومع هذا فقد حصل على الكثير من عناية الباحثين وكتب له الرواج على الرغم من تصارع التيار القومى الطاغى في المانيا النازية مع تيار الدراسات المقارنة الذى لا يتنكر للمؤثرات المختلفة أيا كانت •

وفي ألمانيا تعنى المدرسة بفن الترجمة عناية خاصة نظرا لاعتزازهم الشديد بلغتهم وحرصهم عليها ، كما يعنون بدراسة الاشكال والموضوعات الادبية وتاريخ الافكار السائدة في العصر ،

والعلاقة بين التاريخين الادبى والسياسي والعلاقة بين الادب وغيره من الفنون والعلوم ، ثم الفن الشعبى !

ولهذا نراهم يتوسعون في الدراسات المقارنة توسعا كبيرا بعكس جيرانهم الفرنسيين والايطاليين وذلك بدافع من فهمهم للعلاقة بين الدراسة المقارنة والتاريخ الادبى من جهة، واعتزازهم بالادب المرضوعى النافع من جهة أخرى ٠

أما في انجلترا ، تلك الجزيرة المعزولة عن القـــارة الاوربية فيبدو أنهم طمعوا في أن تنجح هذه الدراسات في تحقيق التقارب والالتحام بينهم وبين جيرانهم الاوربيين ، لهذا عنوا بفكرة الادب الاوربى ووحدته واشتراكه ومع هذا فقد تأخر نضج هذه الدراسات فيها الى ما بعد الحرب العـــالمية الثانية ، ولعل السبب في هذا هو منافسة المدرسة الفرنسية لها وصرامتها وقيودها ٠ وخاصة أن الباحثين الانجليز كانوا يتعاملون مع هذه الدراسة وكأنها فرع من علم الاجتماع (شوقى السكرى : (٦٥ ـ ٦٦) ٠

أما في الولايات المتحدة حيث يتحد مفهوم الادب العـام مع الادب المقارن ، فان الدراسات المقارنة تتنـــاول ظواهر الادب باعتباره كلا شاملا ، تقارن بينها وتصنفها في مجموعات وتبحث في أسباب نشوئها والنتائج المترتبة عليها ٠

فالمدرسة الامريكية تتناول الادب المقارن على أنه العـــلم الذى لا يقتصر على دراسة انتاج دولة معينة دون غيرها من سائر دول العالم ، بل يكسر الحدود الاقليمية الضيقة ويدرس العلاقة بين الادب من ناحية وبين ميـــادين المعرفة الاخرى وبين الادب والتصوير والنحت والعمارة والموســـيقى وغيرهـــا ، بين الادب والعلوم التجريبية كالطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات ، وبين الادب والاديان والملل النحل والمذاهب ٠ (ويليك ووارين ٦٦ ، ٦٧)٠

ولاشك أن طبيعة تكوين الامة الامريكية هى التى أملت هذا

المنهج ، فان أكثر من قومية وأكثر من لغة وفلسفة وعقيدة نستظل برايتها ، بالاضافة الى أن دور الولايات المتحدة العالمى كان له أثره الواضح في ارساء دعائم هذا المنهج في الدراسات المقارنة الذى يختلف عن المناهج السابقة .

ومع اختلاف هذه المدارس في الجزئيات فانها تتفق في أمور عامة منها :ـ

١ ـ دراسة الفنون الملحمية كمجال من المجالات الرئيسية للدراسات المقارنة .

٢ ـ الفن الشعبى هو المجال الممتع والرحيب للدراسة المقارنة .

٣ ـ قضية الترجمة التى مازالت معاقة وفيها كثير من الخلاف ، هى أهم وأخطر قضايا الادب المقارن .

٤ ـ ضرورة وضع المصطلحات وتحديد مفهومها .

٥ ـ الاداب الغربية الاوربية كلٌ متكامل لا يتجزأ .

٦ ـ واتفقت هذه المدارس أيضا في أمور يجب أن يتسلح بها الباحث المقارن لكى يكون قادرا على القيام بعمله ، فمن عمله أن يكون مؤرخا أو أن يريد ذلك وأن تتعدد مناحى دراسته الادبية ، وأن يتوصل الى المعلومات بسهولة عن طريق الفهرسات والقوائم ، وأن يكون ملما بعدة لغات . (جويار ٥ ـ ٨ ، هلالٌ ٩١ ـ ٩٣) .

ومازالت الدراسات المقارنة تتعثر بالمشكلات القومية الى اليوم ، اذ يصعب بشكلٍ أو بآخر تحديد الفواصلَ اللغوية أوهى مظهر القومية في نظرهم) والمكانيَة (الجغرافية) والزمانية (التاريخية) التى تفصل بين أدب وآخر ، فالآداب النمساوية والسويسرية والالمانية وبعض البلجيكية تنتمى الى لغة واحدة؛

ولكنها تنتمى الى قوميات مختلفة ، وكذلك الآداب الامريكية والايرلندية والانجليزية ، بل ان كاتبين من آيرلنـــدا يمكن أن يسمى أحدهما ايرلنديا والاخر انجليزيا ، كما ان الادب الامريكى يصعب تحديد الحد الفاصل بين تسميته « أدب مســـتعمرات انجليزية » وتسميته أدبا أمريكيا ، فهل سنة ١٧٧٦م تعد فاصلة في هذا ؟ (ويليك ووارين ٦٤ ـ ٦٧) ، وأبعد من هذا أن دراســة التاريخ الادبى في أوربـــا تثبت أن كثيرا من الظواهـــر الادبية انتشرت فيها متخطية الحواجز اللغـوية والزمانية والمكانية في كثير من الاحيان ولا سـيما أدب عصر النهضـة (الرينسانس) والباروك ، والكلاسيكية والرومانسية والواقعية وما بعدها ، مع شيء من الاحترازات ، وكان من الممكن ألا يتعثر الادب المقارن في هذه الوهدات لولا تلك المنـاهج التى ذهبت بكل في طريق ، حتى ان كثيرا من الدارسين لا يرتاح لتسمية (الادب المقارن) ويود أن يسميه بأى اسم غيرها ، وبعضهم يغالى فلا يرتاح مطلقا لهذا النوع من الدراسات ويعاديه (فان تيجم : ١٦ ـ ١٧ ، هلال : ١٦)٠

* * *

والسؤال الان : ما موقفنـــا نحن المســلمين في خضم هذه التيارات التى تجتاح الدراسات الادبية والمقارنة في العالم ؟

ولعل في هذا التناقض وهذا الاضطراب الذى ما زالت تعانيه الدراسات المقارنة والصعوبات التى نعترض سبيلها في ارسـاء قواعدها وأصولها ما يدفعنا دفعا الى محاولة ارساء قواعد خاصة بالدراسات المقارنة من وجهة التصور الاسلامى ، خاصة ان كل من تصدوا لدراسة الادب المقارن منا لم يزيدوا على اقتفاء صنيع نظرائهم من الاوربيين الذين حاولوا أن يؤسسوا دراسات تتناول « العلائق » و « الوشائج » بين الاداب الاوربية بعضها بعضا ، وقلما نجح باحث عندنا في ارساء أساس لصرح دراسات مقارنة تعنينا ، والا فما حاجتنا الى دراسة العلاقات بين الاداب الاوربية

من مقام المشاهد الذى يحلق بطائرة في أجوائها ، فهو في غـــربة دائمة لم تكتب له الحياة في أرضه وحرم أبدا من التأقلم في ديـار هجرته أو حتى هبوط العابر فيها .

ولا ينبغى أن نهمل شأن دراسات قام بها أساتذة أجلاء على رأسهم الدكتور محمد غنيمى هلال كان لها فضل تعريف الدارس العربى بالدراسات المقارنة ، وفتح باب واسع للبـاحثين للعمل على تأسيس الدراسات المأمولة في الادب المقارن من وجهة التصور الاســـلامى .

ولكن هذه الجهود ضئيلة الى حد لا يبشر بقرب استقلالنا عن المناهج الوافدة أو بقرب بناء هذه الدراسات المأمونة في الادب المقارن وشيوعها ، فقد تركنا أنفسنا نهبا لهجمات هذه التيارات التى تجتاح العالم ، وانخرط كل جماعة منا في تيار من التيارات وافترقت بنا السبل وتقاذفتنا أمواج الاختلافات ، وهلل كثير منا لما يرى على الساحة وعده ظاهرة صحية (رشاد رشدى مجلة المسرح ٣١ افتتاحية) فهل نستطيع أن نختط لانفسنا خطة نسير عليها وتكون نابعـة منا ، من طبيعـــة لغتنا أو لغاتنا ، ومعبرة عن شخصيتنا ، مستهدفة تحقيق آمـــال أمتنا ، ناظرة الى عالمية دعوتنا ، وقد ســـار كل في طريق ، وتتلمذ على فريق ، ولولا أن الدراسات المقارنة مازالت غضة الاهاب لينة الاظفار لاشتبكت قرون الدارسين المقارنين ولقعقعت في الساحة أســـنة أقـلامهم كفرسان الملاحم ، اذ كيف يتفق من دان بثقافته لفرنسا ومن دان لالمانيا أو من ذان لشرق مع من دان لغرب !.

ان فقدان الشخصية أحد الامراض التى ينبغى أن تتصدى الدراسات المقارنة لعلاجها بأسـلوب التحليل النفسي للمريض ، أى باطلاعه على الصدمة الاولى التى سببت هزيمته حضاريا ثم التدرج معه الهوينى في سبيل استرداد شخصيته الضـــائعة في خضم الشخصيات والافكار المستوردة ؛ وحينئذ سينظر باشمئزاز

وتقزز الى تلك الشخصية الباهتة التى تقمصها أبان هزيمتـــه وضياع ارادته ، وعندئذ لن تختلف نظرته الى هذه الشخصية عن نظرة الغرب لها ، ذلك الغرب الذى يضرب كفا بكف من سخف عقلياتها المستعبدة له وسفاهة أحلامنا اللاهثـــة وراءه ، ذلك أن نصيبنا من رأيهم فينا لا يزيد عن قول أحدهم : ـ

« والعجيب في أمر الاهالى هنا هو اذعانهم المحزن لهذه اللغة وأشباهها التى يتلقونها منا جميعا معشر الاجانب ، أن منظرهم يحرك العواطف ويثير الشجون • قرون من العبـودية ولدت قبهم روحا تختلف عن روح الجـــدل والبسط والازدراء التى يتلقى بها الانجلوساكسونيون الاحرار هجمات الاجـانب على لغة قومهم » (وليام جيمس في مذكراته ص ٢٧٩) •

وهنا يتحتم علينا أن نوجه دراستنا المقارنة نحو استرداد العزة اللغويـــة الضـــائعة وهى أســـاس من أسس « الرابطة الاسلامية » •

علينا أن نعرف المسلمين بأنفسهم أولا ونعرفهم ببعضهم بعضا بعد ذلك نعرفهم بأنفسهم ليستردوا شخصيتهم المفقودة وثقتهم بأنفسهم ويطرحوا أسباب الهزيمة الحضـــارية بالعقل والعاطفية معا وهذه رسالة الادب المقارن الجليلة التى ينبغى أن ينهض بها ، سيعرف المسلمون أنفسهم بمعرفة مكـــانهم على خريطة العالم الحضارية ، ومعرفة الابعاد الحقيقية لمشاركتهم في تاريخ العلم والحضارة ، والتاريخ الادبى للعـالم • ان العـودة الى تاريخ العصور الوسطى وتعمقه بالدراسة الواعية ستخرج لنا كنوزا من المشاركا تالفعلية ومن مقام مشرف للادب والعـلم الاسلامى ، مقام تتلمذت عليه الحضارات الحديثة جميعا فعلى محور الاندلس الحضارى عرف العـــالم عن طريق « بروفنسا »

نوعا من الادب كان له الفضل الاكبر في النهضة الايطالية الحديثة وهو شعر (التروبادور) وعن طريق صقلية عرفت أوربا قصصا وملاحم مازالت تباهى العالم بها ، ومازال كثير منا مبهورا بروعة شعرها وحرارة العاطفة التى تتمتع بها وخواتيمها الدامية ، وكل ذلك أو بعضه مؤثرات من الاداب الاسلامية التى التقت مع النورمان الذين أعجبوا بها أيما اعجاب وحافظوا عليها كما حافظوا على الطابع الاسلامى المعمارى لجزيرة صقلية ، بعد أن استولوا عليها من أيدى المسلمين الغافلين ، وهو ما يزال شاخصا للسياح في الجزيرة الايطالية ، ولعل الذى أنكر وجود شخصية « شيكسبير » وعزا انتاجه الى شخص آخر يدعى (الشيخ زبير) نظر الى تلك المؤثرات الايطالية الصقلية في أدب شكسبير الخالد ، الذى كانت ايطاليا هى مسرح أحداث كثير من روائعه التى بهرت أجيالا من مثقفينا ودارسينا ، ومن هذه الاعمال (عطيل) وهو الاسم الذى اشتهرت به شخصية Othello بعدما قام خليل مطران بترجمة مأساته الى العربية وقال في تقديمه لها (تناولت الرواية لاعربها وكأننى أنوى ردها الى أصلها ، كما رددت اسم عطيل (خليل مطران : مقدمة عطيل ـ ٨) ولعل مطران أحس بهذه الروح العربية التى تسرى في النعل من ألفه الى يائه وخاصة في شخصية (أوثلو) فلم يسم عمله ترجمة وانما ردا الى الاصل،ولعلهكان يوفقأكثر لو سمىبطل المسرحية (عنترة)،فانكثيرا منأحداثها وشخصياتها تنطبقعلىقصةعنترة ولئنكانتحبكتها وخاتمتها تختلفعن سيرةعنترةفانكثيرا منها يمكن رده الىقصص عربية أخرى مما ورد في كتبالاماليوالاغانى ونهاية الارب وألف ليلة وليلة ـ وغيرها • ومسرحية روميو وجولييت نفسها تسرى فيها لمسة رومانسية كتلك اللمسات الحالمة الحزينة التى في سيرة المجنون وليلاه وأشعاره ، الا أن عذرية المجنون مفقودة في (روميو وجولييت) ، حيث ان قيسا

وليلى تربيا معا وتحابا حبا طاهرا عفيفا أسلمهما الى مأساة ، فرقت بينهما ، أما النموذجان الايطاليان فقد تزوجا ولما تمض ثمان واربعون ساعة على اللقاء الاول بينهما وغرقا معا في بحار اللذة الحسية قبل أن تفرق بينهما عداوات أسرتيهما وتكون المأساة (ولئن كان بعض النقاد قد ذهب الىأن شوقيا اقتفى أثر شكسبير في مسرحيته هذه بمسرحية مجنون ليلى فانهم نظروا الى جانب الحبكة المسرحية فقط والمبارزة المفتعلة في الفصل الثانى والخاتمة ، ولكن الحقيقة التى يتحراها الباحث ولا يعيى في التوصل اليها هى أن عمل شوقى كان أصيلا وشكسبير هو الذى تأثر بالقصة العربية القديمة كما تأثر بها الفرس وغيرهم كما تأثر بغيرها من القصص العربية والاسلامية التى بنى عليها كثيرا من مسرحياته التى جعل من ايطاليا مسرحا لها ، حيث ان ايطاليا وصقلية معها كانت هى المعبر الحضارى الذى انتقلت عبره حضارة الاسلام الى أوربه من ناحية الشرق وهو العمل الذى قام به الاندلس من الناحية الغربية وكان المنطق يقضي بأن يتأثر شكسبير بالجناح الغربى ، ولكن محاكم التفتيش كانت قد أتمت مهمتها في القضاء على حضارة الاسلام هناك في القرن السادس عشر الذى ولد فيه شكسبير وانطفأت شعلة الحضارة هناك ، أطفأتها نيران الحقد التى اشتعلت في صدر دونا ايزابيلا ضد الاسلام ، وبقيت أثار تلك الحضارة في ايطاليا ، حافظ عليها النورمان الذين جاوروها في بروفنسا وحملوا لها كل الاحترام ، ورعوا شعراء بروفنسا الفارين الى ايطاليا من بطش ملوك فرنسا ، هؤلاء الشعراء الذين نقلوا طبيعة الشعر العربى الى أيطاليا فكان الزناد الذى أورى قنديل النهضة الايطالية وأضاء لاوربا طريقها من عصور الظلام الى العصر الحديث • (العقاد : ١١٧ ، فيشر : ١٣٥) •

ان دراسة هذه التحركات الحضارية والاحداث التاريخية

تضع يد الدارس على مسارات الظواهر الادبية في اتجاهـــاتها الطبعية مما يسهل رصد المؤثـرات الحقيقية للآداب المختلفة في بعضها البعض ، ونـوع هذه المؤثـــرات ليدرك البعد الحقيقى لحضارته وحجمها في التراث « الانسانى » والبون الشاسع بين ما هو « انســـانى » بمفهوم الغرب وما هو « ربـانى » في الحكمة الاسلامية .

ويتجلى هذا في دراسة مظاهـر التأثير وردود الفعل الادبية على محاور التأثير المختلفة خلال الحروب الصليبية ، وهى مجال يحق للمسلم أن يزهو بما حقق فيه من الانجاز فقد كانت أوربـا آنذاك حريصة أشد الحرص على التعرف عـلى معالم حضـــارة المسلمين وكان تعطشها الى الاختلاط بهم يفوق الرغبة في القضاء عليهم ، بل لم تكن خيبة أملهم الكبرى لفشلهم في تحقيـق نصر على جيوش المسلمين في الشام ، بل كانت نعـدم قدرتهم على التعمق في قلب العالم الاسلامى والتعرف عليه أكثر ، « ولو قيض للصليبيين أن يتعرفوا محاسن ما أنتجت آسيا في تلك العصور » على حد تعبير أحد مؤرخيهم ، «وأن يتشربوا ما تصل اليه أيديهم من تلك المحاسن ، لدخلت رباعيات عمر الخيـام ـ وهو أكبر قـادة الفكر في القرن الحادى عشر الميلادى اطلاقا ـ في التراث الفكرى الاوربى بدلا من بقائه خلوا منها الى أيام فيتزجرالد » . (فيشر : جـ ١ ص ١٩٢) .

ألا يدلنا هذا على أن مجال الدراسة عندنـا أوســـع من أن ندعه لنتطفل على موائد الآخرين ؟!.

أما آن للمقارن المسلم أن يشغل نفسه برسالته ومجالاته ، عن مجالات الادب المقارن كما يتناوله الاوربيون ، وأن ينشـغل بدراسة الآداب الاسلامية ، في اللغـات الاســـلامية المختلفة من جهة ، ويضع نفسه في خدمة قضية اسلامية اخرى لا تقل أهمية

عن هذه الاولى ان لم تزد فان بحث العلاقـــات الادبية بين أمم الاسلام ، وتحديدها أمر جد خطير ولعله يكون مؤثرا في مستقبل العالم الاسلامى بدرجة لا يمكن معها اغفـــاله ، ولكن المجـــال الآخر الذى ينبغى أن نكرس له كل امكانات الدراسات المقارنة في المستقبل القريب هو العكوف على اعداد كشف حساب لمظاهر التأثير والتأثر بين الاداب الاســـلامية والاداب الغربية قديما وحديثا ، ومهما كانت علامات الاستفهام التى ستلقى في سبيل هـــذا الامر فان من واجبنا أن نقوم بدورنا الخطـــير في اعداد هذا الكشف وتقديمه الى أجيال مهزومة نفسيا وثقافيا من أثر عصر الاستعمار الذى مازلنـــا نرزح تحت وطـــأة مخلفاته الثقافية والفكرية الى الآن ٠

علينا أن نعرف الاجيال بأصل كلّ ظاهرة أدبية بهرتهم من الغرب ليعلموا أنها بضاعتنا ردت الينا ! ٠

علينا أن نعرض على الاجيال صورة الماضي الزاهـــر الذى تتلمذت أوربا علينا فيه وقبست من أنوار حضارتنا ما لم نبخلّ عليها بشيء منه وقدمناه طائعين ٠

علينا أن نبرز للاجيال الفـــارق الهـــائل بين التأثير الحميد لحضارتنا في الحضارة الاوربية ونهضتها ، والتأثير السيء الذى أحدثته أوربا فينا كرد فعل من جنس جزاء سنمار !

علينا أن نعرض على الاجيال المهزومة صـــورة الحضـــارة الاسلامية الزاهرة يوم طلعت على أوربا وأضـــاءتها وكيف خبت أنوارها أمام بطش محاكم التفتيش في الاندلس ذلك الفردوس المفقـــود ٠

علينا أن نعرض على الاجيال طبيعة ذلك الاتصال الذى تم

بين المسلمين والاوربيين ومحاوره المختلفة بدءا من الفتح الاسلامى للأندلس وانتهاء بالعصر الحالى مرورا بالحروب الصليبية ليروا كم ذاقت أوربا من الاطايب على يدينا وكم تجرعنا على يديها من مرارات ٠

ان هذا النوع من الدراسات المقارنة ٠٠٠ الذى يؤدى رسالته في ازالة آثار الهزيمة ، ويرد الثقة الى جيل حائر ، مشتت ، مفعم بالاعجاب بالعدو الذى قهره ، لهو المجال الاولى بتوجيه الاقلام نحوه والصبر فيه على المكاره والتمتع بأطايب الذكرى وعصر القوة عسي أن نجد فيه عبرة تنفع في عصر ينبغى أن تستغل فيه كل الوسائل لنصرة أى قضية من القضايا وهذه قضية مصير أمة ٠

وبهذا تتجسم معالم قاعدة من أهم قواعد هذا المنهج ، في رصد التحركات الحضارية : حربية وتجارية وهجرية ، مما يسهل مهمة المقارن ويضع يده على مفتاح كنز زاخر بأطايب دراسته ، حيث ان الاتصالات الادبية تنبع دائما من هذه الانواع من الاتصالات ٠

وقد يقول قائل : ان بعض الاتصالات تليها ردود فعل معاكسة ومضادة ، فليس حتما أن ينجم عن الغزو الحربى غزو فكرى ، وقد يضطر شعب للاتجار مع شعب آخر أو طائفة منه ، وهما مع هذا يضمران مشاعر متبادلة بالاشمئزاز والاحتقار نجاه بعضهما بعضا !٠ وقد يخرج شعب مهزوم عسكريا ، منتصرا ثقافيا على من دحره في ميدان القتال !٠ ومثل هذا القول لايرد وجهة النظر السابقة بل يقويها ، حيث ان مفهومنا لفلسفة الدراسة المقارنة يختلف عن ذلك الرأى القائل ، بأن الادب المقارن هو رصد الصلات والتأثيرات بين أدبين أو أديبين ، فهذا مجرد جزء من الدراسات المقارنة يحاول بعض الدارسين - ولاسيما

في فرنسا - أن يقصرها عليه تضييقا لها بحيث تفقد الادب المقارن الكثير من حيويته التى يمكن ان يتسم بها لو ترك وشأنه يمارس وظيفته الجليلة في تعقب أثر البيئة والمجتمع والعادات والتقاليد بل والفلسفة والدين وأثر الحضارة والعصر في أدب ، أو أديب ، ومقارنتها بمثيلتها في لغة أخرى ، وما أنتجت من أثر في أدب أو أديب كان نتاجه مشابها أو مخالفا أو مناقضا للأول ، وتأتى دراسة الصلات والتأثرات في مقام تال لهذا ، وهنالك ينبغى مزج الدراسات الاجتماعية والبيئية و « الانثروبولوجية » والثقافة والنفسية الفلسفية والجمالية وغيرها ، بالدراسة الادبية واللغوية ، وحينئذ نستطيع أن نستنبط نتائج مثيرة ونتوصل الى حقائق مذهلة وننعم بدراسة ممتعة الى حد لا يكاد يحس به الا من عانى مشقة المقارنات ومتعتها ٠

فالدراسة المقارنة كما ينبغى أن تكون هى دراسة الفعل ورصد رد الفعل بين أمتين أو شعبين يختلفان في اللغة ، ودراسة النتاج الادبى الحاوى لظواهر التأثير والتأثر ، ووسائل انتقال الاثر وأدلة حدوثه ، ثم دراسة التغيرات الحضارية الناجمة من الصلات والتأثرات وردود الفعل ٠

فدراسة المجتمعين سياسيا واجتماعيا وفكريا (التاريخ والعلم والعقيدة والعادات ٠٠٠ الخ) من دراسة الفعل ٠

ودراسة التحرك الذى نجم عنه الاتصال كذلك ، حيث ان نوع الاتصال مهم جدا في صدق الاستنتاج في المرحلة التالية ٠

ورصد رد الفعل ليس هو رصد التأثر ، ولا يتوقف اذا ثبت عدم التأثر ، أو اذا ثبت أن الاثر كان مضادا ، فدراسة رد الفعل لا تفقد أهميتها أو لا تقل أن لم تزد في الحالتين الاخيرتين ٠

والتاريخ يسجل لنا تحركات حضارية كثيرة من هذا النوع أذكر منها مثلين شهيرين :

الاول : هو ذلك التحرك الحضارى الرومانى ضد اليونـان ، والذى نجمعنه أثر معاكس للآثار المألوفة عقب الغزوات الكبرى، حيث يجنح المغلوب الى محاكاة الغالب والتأثر به نتيجة اعجابه بقوته التى سببت انتصاره ، ذلك الاعجاب الذى يصل الى حـد محو شخصية المغلوب واندماجها في شخصية الغالب ، ولكن الذى حدث هو أن قوة الحضارة الاغريقية وعـدم قدرة تلك الحضـارة الحربية الرومـانية على الاتيان بمثلها وذلك الحصـــاد الفكرى الكبير للاغريق استطاع أن يتغلب على من قهروا شعبا وهن في ميدان المعركة ، فاذا الرومـــان المنتصرون يتتلمذون على فكر الاغريق وأدبهم ويستوردون منهم كل ما قدروا على استيراده من حصاد الفكر والادب بل والمعتقدات والتقاليد والعادات .

والمثال الآخر من تاريخ المسلمين في الاندلس الذين لم يتوقف تأثيرهم على الاوربيين حضارة وفكرا وأدبا الى ما بعد رحيلهم بقرون برغم الاضطهاد الذى لم يشهد التـاريخ مثله من جانب السلطات ، ومحاكم التفتيش المسيحية ، الذى لم يتوقف عنـد حد ارهاب البشر وحرقهم أحياء والتمثيل بهم ، بل تجـاوز هذا الهوس المحموم كل الحدود ليضـطهد الفكر المحفوظ في مئـات الآلاف من الاسفار والكتب التى كان لها الفضـل في انارة العقل الاوربى ونهضته الحديثة ، فتم في عهد محاكم التفتيش أكبر حدث همجى يشهده التاريخ وهو حرق هذه الاسفار في أكوام بلغ من ضخامتها أن النار كانت تظل مشتعلة فيها شـهورا قبل أن تفنى ويفنى معها أمل البشرية في حضارة راشـدة ـ ولعل هذا الدمار الذى يحيق بالعـالم من جراء الحروب أثر من آثـــار هذه الهمجية الاوربية ـ فقد اضطهد العلماء الذين تتلمذوا على المسلمين في سائر المجـالات ويشـــهد التاريخ بما لاقاه جاليليو وكوبر نيكوس وغيرهمـا وكان هذا دأب أمـــراء أوربا وملوكها

تجاه كلّ مظهر من مظاهر التأثير الاسـلامى العربى فيها منذ العصور الوسطى ، وقد حدث مرات أن غزا ملوك فرنسـا اقليم بروفانس من أجل تعقب شـعرائها وقتلهم ، وكان فرار هؤلاء الشـعراء الى ايطاليا فاتحة عصر النهضـة فيها كما أسلفنا (الشـوباشي ٨٢) ٠

ومع هذا بقى تأثير المسلمين في أوربـا على حاله وانتصر العلم برغم الصعاب وحدثت النهضة المرجوة ، وبقى تأثيرهم في الاداب الاوربية فيما قبل الكلاسـيكية الجديدة مما دعـا الكاردينال دى ريشيليو (١٥٨٥ ـ ١٦٤٢م) وزيـر لويس الثالث عشر ـ والذى كان مهتما بالفنون والاداب وأسـس الاكاديمية الفرنسية ـ الى أن يعمل على مقاومة هذا التأثير ، فاسـتدعى بيير كورنى (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤م) وأمره بمحاكاة المآسي الشـهيرة للاغريق والرومان في أعماله المسرحية ، فاسـتجاب هذا وكتب مسرحياته التى كانت فاتحة عصر الكلاسيكية الجديدة ، لهذا نرى السمة المسيحية تطبع هذه الاعمـال التى كتبها ارضـاء للكاردينال ، ولاسـيما في مسرحيتيه الشـهيرتين السيد سـنة ١٦٣٦م Lesid وبوليـوكت Polyeucte ، ومع هذا فقد برز أثر الثقافة الاسلامية فيهاتين المسرحيتين ، فالاولى تحكى قصة السيد القمبيطور وهو من مشـاهير أبطال الفروسـية في الاندلس في قشتالة وكان اسمه رودريجو ديـازدى فيفار قبل أن يسـلم ويتزوج بامرأة مسلمة ويبلى بلاء حسنا في حروبه ضد الفرنجة، وقد نسجت حولـه كثير من الاسـاطير ، ولكن كورنى جعله في مسرحيته مسيحيا يحارب في سـبيل مليكه ألفونس القشـتالى ويخادع المرابطين ويموت في النهاية في الحرب ضـدهم ، أى أنه جعله بطلا مسيحيا ارضاء لمليكه ووزيره الكاردينال وربما خوفا من بطشهما ومحاكم التفتيش ، ولكن التاريخ الاسلامى يحكى أن السيد القمبيطور حسن اسـلامه ولم يعد الى المسـيحية ولم يخادع المسلمين، أما في بوليوكت فقد ظهر أثر الثقافةوالمعتقدات

الاسلامية واضحا وخصـــوصا فيما يتعلق بقدرة النعمة الالهية التى كانت منطلق الفلسفة «العربية» في عهدها الاول ، ولاسيما عند الغزالى والمتصـوفة (من تقديم خليل مطـــــران لترجمته للمسرحية ص ١٢ ـ وكلمة العربية هنا واضـــح أنها ينبغى أن تكون الاسلامية) ٠

فرصد رد الفعل هنا تعبير من رصـــد المؤثـرات والتأثرات الذى يتناقله المقارنـــون ، حيث ان رد الفعل قد يكون بالتأثير المضاد للفعل كما حدث في المثل الاول، وقد يكون بالتأثر أو بعدمه فينجم عن التأثر ظاهرة أو ظواهـــر أدبية تعد مجـــالا ممتعـا للدراسة ، وينجم عن عدم التأثر ظاهـرة أو ظواهـر أدبية ربما كانت اكثر امتاعا للدارس المقارن كما في الحالة الثانية التى ولد فيها مذهب أدبى مشهور هو الكلاسيكية التى تظلم ظلما بينـا لو اقتصرت الدراسة المقـــارنة على قرنها بالادبين الاغريقى والرومانى وبالتراث الاوربى ، ويكون من تشويه الحقائق اهمال الباعث على نشـــأتها أو الدافع لذلك وكذلك الامـــر في نشأة الرومانسية التى ثارت على هذا الوضع وعادت للاســـتمداد من رصيد الخيال العربى والعاطفة الاسلامية الذى حرمت منه أوربـا قرونا منذ بدء نشـــاط محـــاكم التفتيش الى ما بعد الثورة الفرنسية ٠ وأثر رباعيات الخيام التى ترجمها فيتز جيرالد سنة ١٨٥٢م الى الانجليزية شـــاهد على ذلك ٠ (مغيـــد الشـــوباشي الادب ومذاهبه ـ ٨٢) ٠

ولذلك أكدت أول الامر على أهمية دراسة نـــوع التحـرك الحضارى لصلته المباشرة بنوع رد الفعل الذى يخطىء من يهمله ويفسد استنتاجه لفساد مقدماته كما حدث مع دارسي الكلاسيكية والرومانسية اللتين ولدتا في فرنســـا خاصة ، أى في البلد الذى حمل مشعل الحضارة الاسلامية ـ من الاندلس الى أوربا أولا ثم كان منطلق التيار المضاد ضدها بعد ذلك ٠

أما النص على اختلاف اللغة فهو رد لدعـــوى القوميـات من جهة وتوسيع لنطاق الدراسة فان أمة الاسلام تتعدد شعوبها بتعدد لغاتها ولا تتعدد قوميـــاتها لتوحـــد دينها فلا قومية في الاسلام وانما هى (الرابطة الاسلامية) لان الوطن الاســـلامى للمسلم يمتد الى كل مكان يسمع فيه مؤذن ٠

فالمقارن يقبل اذن على دراســته الجليلة الممتعة في الاداب الاسلامية التى تختلف لغاتها ولاينظر الى الناحية القومية فيجد أمامه رصيدا هائلا من ثقافات المسلمين ونتاجهم في شتى بقاع المعمورة التى وصلها الاذان وعليه أيضا أن يدرس التحـــركات الحضارية ـ أو على الاصح (الهمجية) ـ المضادة في هذه البقعة وتلك الاخرى ، التى تعمل على ايجاد الفوارق القومية أو اللغوية في الوطن الاسلامى كتلك التى حدثت في القارة الهندية المسلمة أبان ثورة أهلها على الانجليز ، وعند الاســـتفتاء على دستور باكستان التى حوت بقايا المسلمين بعد المذابح البشـــعة التى جرت ضدهم في القارة المســـلمة ، واجتهد الانجليز في عزل اللغة العربية من مواد الاستفتاء على الدســـتور وقصره على اللغتين الانجليزية والاردية لعلمهم أن الشعب سيختار العربية بلا تردد لغة رسمية لبلاده !٠

وهنا تثور قضية من أخطر قضايا الدراسات المقارنة ، وهى قضية الترجمة التى يضيق المقام عن التفصيل بشأنها وتكفى الاشارة الى مدى خطورة هذه القضـــية فيما يتصـــل بالقرآن الكريم ، حيث تضطرب أقلام النقاد والمستشرقين والدارسين وتتخبط آراؤهم وتخونهم مناهجهم عندما تصل المسألة اليه ٠

فقد أجمعت آراء الدارسين المقـــارنين وغيرهم على أن أى نص أدبى يستحيل نقله كاملا الى لغة أخرى مهما كانت براعة الناقل في كلتـــا اللغتين ٠ واســـتقروا على أنه ينبغى اعتماد

الترجمة بدل النص الاصلى في المقـــارنة ، حيث ان روح المؤلف وعاطفته وفكره ترتبط ارتباطا وثيقا بلغته الام والنص المترجم يخلو من هذه العناصر التى هى روح النص اللهم الا أقل القليل، وعندمـا يتعذر على المقـــارن الانتقال الى لغة النص وقراءته فيها فعليه أن يضع في اعتباره هذه المسلمة ، وهى أن هذا النص المترجم ليس هو النص الاصلى وليس هو ما أراده المؤلف .

وهنا يجدر أن نشير الى أن الدارسين من مستشرقين ونقاد ومقارنين قد أغفلوا هـــذه المسلمة وأقدموا عـلى ترجمة القرآن الكريم غير عابئين بما يصيب كلام الله المنزل من تشويه وأبوا أن يسموه (ترجمة معانى القرآن) أو (تفسير القرآن) ولميلتفتوا الى وصفه بأنه « بلسان عربى مبين » .

ولذا فان عرض هذه القضية في الدراسات المقارنة عندنـا سيكون له وضع خاص جدا وشائك حيث اننا لن نسمح بتجـاوز من أى نوع في شأن كتابنا الكريم ، ولو واجهتنا صعوبـــة عدد لغات البشر التى تزيد عن أربعة آلاف ، ولو اضطررنا الى اعتماد الترجمة في مجال دراســـتنا ، وهو ما أميل اليه ، ولكن على أن يبقى القرآن الكريم على حاله حرما مقدسا ، و (قرآنـا عربيـا غير ذى عوج) .

ان صعوبة مثل هذه القضية وخطورتها تضاعف المسئولية الملقاة على عاتق المقارنين وتملأ طريقهم بالمشـــقات التى يعد اجتيازها مع المحافظة على طبيعة عمل المقارن المسلم، وعدم تجاوز صراطه المستقيم ، عملا جليلا يستحق الضنى ، وأملا ينبغى أن يتسلح الباحث للوصول اليه بشتى وسائل النجاح .

ينبغى اعداد قوائـــم المراجع المنظمة أسوة بما كان يفعل أجدادنا (فهرست ابن النديم) .

وينبغى اعتماد منهج التوثيق في الروايـــة وتقييد النص. أسوة بعلماء الحديث وعلمـــــاء الادب ورواتـــه كالاصمعى والاصفهانى ٠

وينبغى اعداد اللوحات الزمانية والمكانية للنتـــاج الادبى والمؤلفين كما فعل أصحاب المعاجم المتخصصة قديما كياقوت في (معجم الادباء) ٠

وينبغى اعتماد منهج للترجمة ودراسة اللغـات يختلف عن المنهج الانهزامى الفوضوى الحالى ٠

وينبغى اعتماد دراسة التحركات على محـاورها الجغرافية والتاريخية من أجل تسجيل الظواهر الناجمة من هذه التحركات ٠

وأخيرا ينبغى أن يهجر المقارنون البحوث المشـــتتة ، وأن يعتمدوا نوعا من التنظيم والتقسيم حتى لا تعم الفوضي مجال دراستهم وتضيع جدواها وينعدم نفعها ، وسوف يكون في مقدور هذا التخطيط أن يتناول جميع جوانب الدراسة المقـارنة ويضم شتاتها في ظلال منهج فريد يضم الى الاصـالة قدرة على تفهم المناهج العالمية الاخرى واستيعاب كل نافع ومفيد من اتجاهاتها ومسائلها الحيوية ٠

اننا اذا استطعنا أن نؤسس منهجنا المقارن هذا التأسيس أمكننا أن نؤسس منهجا عالميا في الدراسة الادبية والنقدية تجد في أصالته وحيويته المتجددة كثير من الامم بغيتها ، وتســتظل بظل الحقيقة المطلقة التى يتفيأ هو ظلالها ، وهو انما يستمد طبيعته هذه من طبيعة الدعوة الاسلامية العالمية : ومن منهجها الفريـــد ٠

وتتصل الدراسة في العدد التالى ان شاء الله ٠

أهم المراجـــع

١ ـ جب : هـ٠ أ٠ ر : الادب ـ فصل من كتاب (تراث الاسلام) جـ٢ ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٦ ٠

٢ ـ جويار : م٠ ف : الادب المقارن ـ سلسلة ألف كتاب برقم ٤٤ سنة ١٣٧٦ ٠

٣ ـ رينيه ويليك ، وأوستن وارين : نظرية الادب ـ دمشق ـ المجلس الاعلى لرعاية الفنون ٠

٤ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور ، ومحمد أنيس : النهضـــات الاوربية ط ٢ سنة ١٣٨٠ ـ لجنة البيان العربى ٠

٥ ـ شوقى السكرى : مناهج البحث في الادب المقارن : عالم الفكر المجلد ١١ العدد ٣ ٠

٦ ـ طه ندا : الادب المقارن ـ دار المعارف سنة ١٤٠٠ ٠

٧ ـ عباس محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الاوربية ـ دار المعارف ط ١ سنة ١٣٦٦ ٠

٨ ـ فان تيجم : الادب المقارن : بترجمة سامى الدروبى ـ دار الفكر ـ

الادب المقارن : بترجمة ســـامى الحسامى ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ٠

٩ ـ فشر : هـ٠ ا٠ ل : تاريخ أوربا في العصور الوسطى جـ ١ دار المعارف ط ٥ سنة ١٣٨٩ ٠

١٠ ـ محمد غنيمى هلال : الادب المقارن ـ دار نهضـــة مصر ط ٣ سنة ١٣٩٧ ٠

المواقف الادبية ـ دار نهضة مصر : سنة ١٣٩٣ ٠

دور الادب المقارن ـ دار نهضة مصر : سنة ١٣٩٦ ٠

١١ ـ محمد مفيد الشوباشي : ـ رحـلة الادب العربى الى أوربا دار المعارف ٠

ـ الادب ومذاهبه ـ الهيئة سنة ١٣٩٠ ٠

١٢ ـ موريس بورا : الخيال الرومانسي ـ الهيئة سنة ١٣٩٧ ٠